أثر اللغة العربية في جمال النصوص الإبداعية

الدكتور:قاسم حسن القفة – جامعة الزاوية

ليـبـيا

ليس بمقدور أحد أن يدرك العلاقة القائمة بين اللغة والأدب مهما كانت الوجهة التي يصوب نحوها في كتابة الإرث الإنساني، ولكن من المؤكد أن العلاقة بين علم الأدب وعلم اللغة:أي بين المعرفة المتصلة بالإبداع في فنون القول والمعرفة المتصلة بالانتظام الذي تستوي عليه اللغة المدروسة ضمن منظومة الألسنة البشرية ،علاقة تكاملية ،وقد لا نبالغ إن قلنا: إن اللغة هي اللوحة التصنيفية للتجربة الإنسانية التي يعد الأدب أهم أركانها.

إن صيغ اللغة وتراكيبها هي التي تحوّل اللغة إلى مخزن كبير من الابتكارات الإبداعية الأدبية ،وإن خصوصيات اللغة العربية التي فرضت نسقاً مرسوماً لها في صناعة الأدب – إن جاز التعبير – هي ثمرة الطاقة الرمزية الفنية في اللغة بكل فروعها وفنونها.

إن اللغة العربية بحد ذاتها فن من التعبير الجماعي [1]؛لأنها تتوفر على مجموعة من المقومات الجمالية – صوتية ،وإيقاعية،ورمزية،وصرفية...- لا تشاركها فيها أي لغة أخرى في هذا الكون،وأن فن الأدب يتكئ على ما فيها من فنون التعبير،وإذا خرج الأدب مطرزاً موشحاً في صورة مبدعة؛فإن فضل ذلك يعود إلى السمات المميزة للغة.

من المؤكد أن النسيج المكون للغة ليس إلا مكوناً من مكونات الأدب،بل لعل خصوصيات أي لغة المتصلة بالألفاظ والعبارات والاشتقاقات...هي الأكثر أهمية في هذا الشأن ؛وذلك يؤكد التبعية المطلقة القائمة بين الأدب والصياغة التعبيرية – اللغة بكل مكوناتها - ،وإن الدارس للغة يتقنها إتقانا يخول له إدراك أسرارها الإبداعية على وجه العموم وأسرارها الشعرية – مثلا – على وجه الخصوص،يصل إلى حقيقة ما اتسمت به اللغة من نظام تتعاقب فيه المقاطع الطويلة والقصيرة؛لتحدث ذلك التلاؤم والتزاوج بين الشعر باعتباره أحد فنون الأدب واللغة.

---

[1] الأدب وخطاب النقد،عبد السلام المسدّي،ص119.

يقول إدوار سابير:" ليست اللغات بالنسبة إلينا مجرد أنظمة نبلغ بها أفكارنا،إنها كأثواب خفية تحيط بتفكيرنا ثم تضفي على تمثيله الرمزي شكله الدقيق، وعندما يتخذ هذا التمثيل الرمزي شكلا يتجاوز في رقة الأداء الحد المألوف نسمي ذلك أدباً"[2]،هذا يؤكد الرأي القائل بأن اللغة مرآة النص، والنص مرآة اللغة، وبخاصة في الحالات الإبداعية المتنوعة، وليس صحيحاً أبداً أن اللغة وسيلة للتعبير فقط، والحال بين اللغة والنص كالحال بين الذكر والأنثى ، فالعشق فيما بينهما سابق لعملية الإنجاب، وإذا كانت عملية الإنجاب قد تتمّ بين أيّ ذكر وأنثى سليمين فإنَّ حالة العشق مرهونة بين طرفين محدّدين، ولا يجوز استبدال أحدهما بآخر، ومن هنا كان بين اللغة والنص حالة عشق حميمية... لنقل حالة جذب دائمة، لأن التشويق حادث فيما بينهما، ومن هنا كانت اللغة مرآة النص، وكان النص مرآة اللغة، فاللغة تنتج النص، والنص يحافظ على اللغة ويطوّرها.

لا شك أن الأدب بجميع أنواعه يعتبر من تراث الأمم وحضاراتها، ومما تعتز وتفخر به، فهو يحفظ مآثرها ويظهر أمجادها، وينشر لغتها وإبداعاتها، ويقرر عقائدها وأفكارها وتوجهاتها، ويصل إلى النفوس بجماله ويؤثر فيها بحسنه ، ولذا نجد القرآن الكريم نزل في غاية الإبداع والبلاغة والتأثير، وحين سمعه أهل اللغة والبلاغة تأثروا به، وعجبوا لبلاغته وفصاحته، ووقفوا مندهشين لشدة أثره وعظيم فعله، فكان سبب إسلام الكثيرين ، وعلى نفس المنوال نجد النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه بلاغة وفصاحة وبيانا، وهو القائل "أوتيت جوامع الكلم" و"إن من البيان لسحرا ."

من أجل ذلك كله نجد القرآن يدعو المسلمين إلى ضرورة استخدام البلاغة والفصاحة وعلى رأسها بلاغة القرآن الكريم في الجدال مع الآخرين ونصحهم وتوجيههم، وعد ذلك من الجهاد، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾الفرقان/52، يعني القرآن الكريم، وقال عز وجل: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا "﴾النساء/62، والآيات كثيرة في هذا المعنى، والنبي صلى الله عليه وسلم يدعو الأدباء من أصحابه إلى إظهار ما عندهم من ملكة للرد على كفار قريش،مبينا لهم أن جبريل عليه

---

[2] Edward Sapir:Language:an Introduction to the study of speech,New York,Harcourt,Brace and World,1921.

صدرت للكتاب ترجمة عربية أنجزها د.منصف عاشور،في جزءين:اللغة – مقدمة في دراسة الكلام،الدار العربية للكتاب،تونس،ج1995:1،ج:1997:2..

السلام معهم،ويبين في أكثر من موضع قيمة البلاغة وأثرها،وثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة؛إيماناً من تأثير البلاغة في نفس المتلقي،وما لهذه اللغة من ليونة ومرونة يمكنانها من التكيف مع محيطها.

لقد غدت العربية تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها،واستطاعت أن تكون لغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى كان العرب نواتها الأساسية،فأعدها الجميع لغة حضارتهم وثقافتهم،حتى أصبحت لغة العلم والسياسة والتجارة والعمل والتشريع والفلسفة والمنطق والتصوف وافن والأدب...،وهذا يؤكد ما لهذه اللغة من قيمة جوهرية كبرى في حياة كل الأمة؛لأنها الأداة التي تحمل الأفكار،وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة،بها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم،كما أن القوالب اللغوية من فنون القول والكتابة التي توضع فيها الأفكار والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقا عن مضمونها الفكري والعاطفي.

إن الحديث عن اللغة العربية وأثرها في الأدب العربي يجرنا للحديث عن خصائص هذه اللغة وما امتازت به ؛ لينتج عنها أدباً رفيعاً،لا يزال أهله مندهشين به حقيقة أو حكماً إلى يومنا هذا،ولعل من أبرز خصائص اللغة العربية تلك التي تحدث عنها السيوطي[3]،حيث قال:"إنها أفضل اللغات وأوسعها؛قال فارس ابن فارس في فقه اللغة: لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها؛قال تعالى:﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ،عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾الشعراء/192-195،فوصفه – سبحانه – بأبلغ ما يوصف به الكلام،وهو البيان،وقال تعالى:﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾الرحمن/4فقدم – سبحانه – ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه ،وتفرد بإنشائه؛من شمس وقمر،ونجم وشجر،وغير ذلك من الخلائق المحكمة،والنشايا المتقنة،فلما خص – سبحانه – اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه".

قال بعض العلماء حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل،والقلب والتقديم وغيرها من سنن العرب في القرآن،وما امتازت به لغة العرب عن سائر اللغات الأخرى ،فقال:وكذلك لا يقدر أحد من

[3] المزهر في علوم االلغة وأنواعها،عبد الرحمن جلال الدين السيوطي،ج1،ص321.

التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة،كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية،وترجمت التوراة والزبور،وسائر كتب الله عز وجل بالعربية،لأن غير العرب لم تتسع في المجاز اتساع العرب...[4]

لقد تحدث السيوطي كثيرا عن خصائص العربية ،حيث استفاض في مسألة أن العربية قادرة عن التعبير بألفاظ موجزة مؤدية للمعنى،وهذا غير متاح في اللغات الأخرى،ولو أراد الناقل ترجمة معان من العربية في ألفاظ موجزة؛ ما أمكنه ذلك إلا بمبسوط من القول وكثير من اللفظ،ولو أراد أن يعبر عن قول أحد الشعراء لطال عليه[5].

ومما اختصت به العرب في لغتهم :قلبهم الحروف عن جهاتها؛ليكون الثاني أخف من الأول؛نحو قولهم مِيعاد،ولم يقولوا مِوْعاد،(وهما من الوعد،إلا أن اللفظ الثاني أخف)،ومن ذلك:تركهم الجمع بين الساكنين،وقد يجتمع في لغة العجم ثلاثة سواكن،ومنه قولهم:يا حار،ميلا إلى التخفيف،ومنه:اختلاسُهم الحركاتِ في مثل:"فاليوم أشْرَبْ غير مُسْتَحْقِبٍ"،ومنه الإدغامُ وتخفيفُ الكلمة بالحذف،نحو لم يَكُ،ولم أُبَلْ.،ومن ذلك إضمارُهم الأفعال نحو:امرأً اتَّقي الله ،وأمرَ مُبْكياتك لا أمْر مُضحكاتك....[6]

لقد ذكر السيوطي في مبحث "بعض ما لا يمكن نقله"،ما استفردت به العربية دون اللغات الأخرى،كأوصاف السيف،والأسد،والرمح،وغير ذلك من الأسماء المترادفة،ثم ذكر أن للأسد في لغة العرب مائة وخمسين اسماً،وأن العجم لا تعرف له غير اسم واحد...،ثم عرج السيوطي عن قول لابن فارس في خصائص قول العرب،حين قال:فأين لسائر الأُمم ما للعرب؟ومن ذا يُمكنُه أن يُعبِّر عن قولهم:ذَات الزُّمَين،وكثرةُ ذات اليد،ويد الدهر،وتَخَاوَصَت النجوم،ومجَّت الشمسُ ريقَها،ودَرَأ الفيء ،ومَفاصل القول،وأتى بالأمر من فَصَّه،...وهكذا،إلى أن علق حول كل هذا بقوله:"وما أشبه هذا من بارع كلامهم،ومن الإيماء اللطيف،والإشارة الدالة"[7].

إن براعة العرب في حديثهم يعود إلى ما امتازت به لغتهم عن سائر لغات الأمم الأخرى،فلهم كَلِم تلوح في أثناء كلامهم كالمصابيح في الدُّجى،والقرآن كتاب الله يغوص بمثل هذه الدرر،وهو أكثر من أن

---

[4] المصدر نفسه،ج1،ص322.

[5] نفسه،ج1،ص324.

[6] نفسه،ج1،ص324-325.

[7] نفسه،ج1،ص326.

نأتي عليه،نذكر من بين ما حير العرب والعجم من أساليب وإعجاز القرآن قوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾البقرة/179 ،وقوله:﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾المنافقون/4،وقوله سبحانه﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾فاطر/43،وغيرها من الآيات المحكمات.

ومن العلوم الجليلة التي اختصت بها اللغة العربية عن سائر بقية اللغات،الإعراب[8]الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ،وبه يُعْرف الخبر الذي هو أصل الكلام ،ولولاه ما مُيِّزَ فاعلٌ من مفعول،ولا مضافٌ من منعوت،ولا تعجّب من استفهام،ولا صَدْر من مصدر،ولا نعتٌ من تأكيد...ومن علوم العرب أيضاً العَرُوض التي هي ميزان الشعر ،وبها يُعْرَف صحيحه من سقيمه...ومن عرف أسراره وخفاياه تمكن من تحليل وتقطيع النظم ،وبات عنده مكشوفاً معلوماً،وهي ميزة عرفت في أشعار العرب لم تعرف عند غيرهم،فظهر نظمهم مغايراً مختلفاً ،فأسهم في تغذية وحفظ تاريخ العرب ولغتهم،وهو يعد اليوم من أهم الروافد اللغوية للغة العربية ،به تزداد ثراء وتجددا.وهكذا،لقد أفاض السيوطي في حديثه عن خصائص العربية وما تميزت به ،فذكر – على سبيل المثال – حفظ الأنساب،والهمز في عرض الكلام،بعض الحروف التي اختصت بها العرب،والتصريف،ومخالفة ظاهر اللفظ معناه،والاستعارة،والحذف والاختصار،والزيادة...إلخ.

لم يكن العرب بمنأى عن بديع القول ،فحديثهم النثري والشعري هو خلاصة تفاعلهم مع لغتهم،خلاصة تفاعل عناصر مختلفة تتآزر لتشكل في النهاية صورةً فنيةً جميلةً،ممتعة مفيدة،وهي التي يهتم بها النقاد والبلاغيون ومؤرخو الأدب في يومنا هذا ،فالقصيدة – على سبيل المثال – ليست الشاعر فقط ،وليست الغرض،وليست الممدوح؛بل هي كل ذلك وأكثر،دون نسيان الألفاظ والمعاني وتراكيب الجمل والعبارات،فالشاعر المبدع يصبو إلى نسج خيوط قصيدته في عمل متشابك متماسك،أساسه اللغة القوية السليمة،وليس في مقدوره أن يفي جوانب قصيدته حقها،إلا إذا استعان بصيغ اللغة بلاغياً ولغوياً.[9]

[8] المصدر نفسه،جذ،ص327-328.

[9] بلاغة الكلمة والجملة والجمل،منير سلطان،ص74.

إن القصيدة عند أبي تمام تتحول إلى تحد ومبارزة لغوية بمعنى الكلمة؛حيث خرجت ألفاظ قصائده عن معانيها الأصلية إلى معان مستحدثة ؛وذلك بفضل اللغة ،فالرحلة ليست رحلة،إنما هي رمز لمولد الإنسان وخروجه من موطنه ومسيرة حياته على الوصول إلى أهدافه،والليل ليس ليلاً،ولا النهارُ نهاراً،وكذا الناقة والصحراء والممدوح والمال...،والشاعر نفسه،كلها تقول:إن الإنسان،لكي يكون إنسانا يجب أن يكون سيِّد وجوده،ومسيِّر أحلامه،وصاحب طموحه،يقول أبوتمام:

ما أنْسَ لا أنسى قولا قاله رجل	غضضتُ في عَقْبِه طَرْفي وأجْفَانِي
نَلِ الثريَّا أو الشعري فليس فتىً	لم يُغْنِ خمسين إنساناً بإنْسَانِ[10]

إن أبا تمام في الأبيات التي مرت بنا يدفع بفضل اللغة بالمتلقي إلى أن يعيش الجو النفسي الذي عاشه هو ، الجو الذي عاشه حال عملية الخلق الفني،يقدم له الألفاظ الجزلة ،والموسيقا المواكبة،ويداعب الكلمات،ويشكل المعاني،وهو بذلك نجح في إحداث التوازن والتواصل بين النص والقارئ[11]،هذا التفاعل لإنجاز السمفونية التي يعزفها لا يمكن الوصول إليه إلا ببراعة التعامل مع اللغة.

لقد ألبس شاعرنا ألفاظ قصيدته حلية جديدة ؛فهو يدرك أن الكتابة الأدبية الإبداعية لا تظل الكلمة فيها مقيدة داخل حدودها – القاموسية –؛لأنها ترمي إلى أكثر من الدلالة المعدة لها أصلا،فهي بحث عن الجديد والتطور[12]،والكتابة فن ينشد المعرفة،ولأن الفن ضرب من العمل،فلا بد من أن يتضمن أحد أسباب المعرفة.[13]

إن الكلمة عند دخولها سياق العمل الأدبي لا تقصد لذاتها،وإنما لدلالاتها التي تقدم معرفة جديدة،ذلك لأن معناه يصبح أرحب وأشمل منها في أي استعمال آخر،وبدلاً من معناها الأول المباشر تصبح رمزاً تتشعب أطرافه،وهنا نلحظ الدور البارز للأديب في القيام بعملية إثراء اللغة والخروج بمعان جديدة متعددة للفظة الواحدة بناء على الموقف والسياق،وهذا يلخص دور الأديب واللغة وتأثير وتأثر كل منهما في الآخر.

---

[10] ديوان أبي تمام،شرح الخطيب التبريزي،تحقيق:محمد عبده عزام،ج3،ص335.

[11] القارئ في النص،سوزان روبين سليمان وإنجي كروسمان،ص130.

[12] الكتابة والإبداع،عبد الفتاح أحمد أبوزايدة،ص20.

[13] النقد الأدبي،أحمد كمال زكي،ص82.

يقول رينيه ويلك:فالكلمة مثلا عند الشاعر ليست علامة أولاً،وليست عاكساً شفافاً،بل هي رمز قيمتها في ذاتها،مثلما أن قيمتها في قدرتها على التمثيل،حتى إنها قد تكون موضوعاً أو شيئاً عزيزاً بسبب صوتها أو منظرها،وقد يستعمل بعض الروائيين الكلمات كعلامات،وفي هذه الحالة يمكن أن يستفاد من قراءتها في الترجمة إلى لغة أخرى،أو تحتفظ بها الذاكرة باعتبارها بنية ذات ارتباطات خرافية،أما الشعراء فيستعملون الكلمات عادة استعمالاً رمزياً.[14]

وأقول إن الكلمة في معناه الأصيل لا تقدم معرفة جديدة عن متحدثي لغة ما؛لكنها في الاستعمال الأدبي تعطى معنى إضافياً عن هذه المعرفة المحدودة التي تتسم بها كل المفردات،فيتجلى الإبداع في الكتابة الأدبية بفضل اللغة ومفرداتها في تفجير الإمكانات الكامنة في الكلمة وبالتالي النص الإبداعي.

إن الحديث عن النواحي التعبيرية والفنية للغة العربية يجعلنا نمر بموازينها في النص الأدبي،هذه الموازين التي تقوِّم الذوق الأدبي السليم،والإحساس الفعلي بحيثيات النص الإبداعية التي تمنحه حيويةً وثراءَ فنيين،وهذا مما يكشف عن أهمية الأدب الذي يتناغم مع الحياة ويخلد قائله،وللأدباء في كل عصر تقديرهم الذي يتناسب ونتاجهم الأدبي،مع تفاوت درجات هذا التقدير الذي يقف من وراء القيم الفنية والموضوعية التي يتمتع بها النص الأدبي[15].

والنص الأدبي الذي يتدفق صدقاً فنياً هو ما جاء معبِّراَ عن الفكرة تعبيراً ينسجم معها من خلال الألفاظ المنتظمة مع بعضها في التعبير،مع تغطية جوانب الموضوع الذي هو محور النص الأدبي،ولكل موضوع ما يناسبه من الأساليب التعبيرية،وهو ما عرف قديماً بأن لكل مقام مقالاً،وإذا اتجهنا بمعونة المنهج التفكيكي نحو القول الذي مر بنا ،نصل إلى أن (المقال) يعني اللغة بكل مقوماتها؛لأنها الرابط بين كل عناصر العمل الإبداعي...

لقد اتجه بعض علماء اللغة والبلاغة لدراسة الألفاظ في أشكالها وتراكيبها،يقول حازم القرطاجني:إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان،فكل شيء له وجود خارج الذهن ،فإنه إذا أُدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أُدرك منه،فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم،فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ،فإذا احتيج

[14] نظرية الأدب،رينيه ويليك،ص91.

[15] الكتابة والإبداع،ص96.

إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ،من لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها،صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيئات الألفاظ،فتقوم بها في الأذهان صور المعاني،فيكون لها أيضاً وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدّالة عليها.[16]

إن ما قاله حازم القرطاجني في نصه الذي مضى يدل دلالة نقدية عميقة تتعلق بأسرار اللغة ودلالاتها عبر أساليب التعبير المختلفة،مما يعين على فهم التطور اللغوي،ومن ثم التطور الأدبي،وهذا كله يعود الفضل فيه إلى اللغة القويمة بكل صورها وفنونها،وهذا أيضا يجرنا للحديث على أن للغة الأدب مميزاتها الخاصة،وإذا ظل الأدب ثابتاً من حيث تعبيره اللغوي على حالٍ واحدة،فإنه يتصف بالجمود وتبقى اللغة فيه محدودة الدلالة،ثم لا يبعد أن تصل إلى درجة التعطل عن القيام بوظيفة التطور،والمفروض لها أن تتشعب وتتزايد في ألفاظها،لتكتسب معانيها اتساعاً متزايداً،فاللغة التي نتحدث بها – حديثا عاديا – ألفاظ يتم التنسيق بينها تحت أعراف اجتماعية وزمانية،دون التقيد بقواعد معينة،ولكن الأمر يختلف عندما تتحول اللغة إلى الميدان الأدبي،حيث يصبح للنظام اللغوي قواعد وقوانين تقبلها اللغة نفسها وتستوعبها،يتآلف هذا النظام مع أنساق التعبير الأدبي ،فتتنوع الأساليب التي من شأنها أن تزيد من سلامة الحياة اللغوية،ويقوم الربط بين اللفظ والمعنى في تحقيق النظام الراقي للغة،فيتم التعبير عن المضامين المختلفة التي تتطلبها الحياة الإنسانية،ويقوم الأدب بهذه الوظيفة التعبيرية الإبداعية.[17]

من هذا الجانب الحيوي الذي تتسم به اللغة الأدبية ،كان موقف الجرجاني،من العبارات التي تؤدي معنى قريبا فقط،وأخرى تُعطي مع المعنى القريب معنى ثانياً،أو ما يسمى في لغة النقد بمعنى المعنى،يقول الجرجاني في هذا السياق:الكلام على ضربين،ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده،وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة،فقلت:خرج زيد،وبالانطلاق عن عمرو فقلت:عمرو منطلق.وعلى هذا القياس،وضرب آخر أنت لا تصل منه على الغرض بدلالة اللفظ وحده،ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة،ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض،ومدار هذا الأمر على الكتابة والاستعارة والتمثيل،أولا ترى أنك إذا قلت:هو كثير رماد القدر،أو قلت:طويل النجاد،أو قلت في المرأة نؤوم الضحى ، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك

[16] منهاج البلغاء وسراج الأدباء،حازم القرطاجني،ص18-19.

[17] الكتابة والإبداع،عبدالفتاح أبوزايدة،ص100-101.

الذي تعني من مجرد اللفظ،ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره،ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك.[18]

هذا العرض النقدي الدقيق لخصائص التعبير الأدبي،والذي للغة الدور الأهم في تكوينه،يقوم على إدراك الناقد لطبيعة النص الأدبي،وأهمية العبارة الأدبية فيه،وإلمامه الجيد لجوانب الدلالات التي تحيط بها،بحيث أن الكلمة عندما تدخل في إطار التعبير الأدبي،يتسع مداها الدلالي،وتقفز من مجرد الدلالة الأولى،وهي دلالة بسيطة وسطحية،إلى الدلالة الثانية،والتي يمكن أن يكون لها أكثر من وجهة في المعنى حسب وعي القارئ بالنص الأدبي.[19]

من الذي مضى يتبين لنا أن لغة النص الأدبي تتطور في فن القول،وعنها تنجم العلاقة الحيوية بين الأدب وبين الإنسان والحياة،على أساس أن الأدب اختيار قائم على أرضية اللغة، فهي المراد الذي يستقي منه الأدب أدواته التعبيرية،وهي التي لا يمكن الاستغناء عنها في عرض الفكرة ،وذلك ببناء جمل وعبارات لها الأثر البالغ في نفس المتلقي،يقول المتنبي:

صَحِبَ النّاسُ قَبلنا ذا الزّمَانَا	وَعَنَاهُمْ من شأنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلّوْا بِغُصّةٍ كُلّهُمْ مِنْــ	ـهُ وإن سَرّ بَعْضَهُمْ أحْيَانَا
رُبّمَا تُحسِنُ الصّنيعَ لَيَالِيــ	ـهِ وَلَكِنْ تُكَدّرُ الإحْسَانَا
وَكَأنّا لم يَرْضَ فينَا برَيْبِ الـ	ـدّهْرِ حتى أعَانَهُ مَنْ أعَانَا
كُلّمَا أنْبَتَ الزّمَانُ قَنَاةً	رَكّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنَانَا
وَمُرَادُ النّفُوسِ أصْغَرُ من أنْ	تَتَعَادَى فيهِ وَأنْ تَتَفَانَى
غَيرَ أنّ الفَتى يُلاقي المَنَايَا	كالِحَاتٍ وَلا يُلاقي الهَوَانَا
وَلَوَ أنّ الحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيّ	لَعَدَدْنَا أضَلّنَا الشّجْعَانَا
وإذا لم يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ	فَمِنَ العَجْزِ أنْ تكُونَ جَبانَا
كلُّ ما لم يكُنْ من الصّعبِ في الأنـ	ـفُسِ سَهْلٌ فيها إذا هوَ كانَا[20]

[18] دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني،ص184.

[19] الكتابة والإبداع،ص101.

[20] العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب،الشيخ ناصيف اليازجي،ج2،ص346-347.

لقد استعان المتنبي في الأبيات التي مرت بنا باللغة لعرض بعض وجوه الإبداع عنده ؛ حيث قدمت العبارة الشعرية عنده في البيت الأول مفهوما آخر للزمن،فالزمن في الواقع مراحل يمر بها الإنسان،لكن المتنبي ببراعته اللغوية صبغ الزمن بصفة إنسانية،وقد صاحبه الناس ويصاحبونه كما يصاحب بعضهم بعضا.

من خلال بنية قصيدة المتنبي التعبيرية ،تلك البنية الفنية التي أقامها بفعل خبرته ،وممارسته لفن الشعر ،ومقدرته البارعة في التعامل مع اللغة وطريقة الإفادة منها ،فجاء التعبير بالخيال مجسدا للمعاني التي تبرز من بينها عاطفة الشاعر،فالزمان ينبت السلاح،والسلاح دليل الصراع الشديد،والإنبات يعطي معنى الكثرة،والمنايا كالحات،وهي صورة مرعبة عندما يتصورها الإنسان ،فالمنايا في حد ذاتها مخيفة،فكيف بها إذا غدت كالحة باهتة كئيبة منفرة!.

هذا العمل الأدبي بكامله – في اعتقادي – هو ما يوحي بإبداع الأديب،ويضع المقياس الحقيقي لهذا الإبداع،حيث ترتبط التجربة الحيوية بعمل أدبي يتنفس بالحياة،ولقد تنامت الكلمة في هذا النص متناسقة في العبارة التي تعطي الجو النفسي للشاعر،وتقدم التجربة الإنسانية عن خبرته في الحياة،ومعرفته بأسرار اللغة وطريقة التعامل معها ؛خدمة للنص الإبداعي الأدبي ،فيحسّ القارئ بقربه من النص ،وبأن علاقته بعد القراءة قد ازدادت رسوخا مع العمل الأدبي من حيث كونه عملا إبداعيا[21]،وهذا يؤكد لنا حقيقة أن اللغة هي الظاهرة الشكلية الوحيدة التي تتيح لنا أن نتعرف على الأدب الذي لا يتحقق إلا بها وفيها،ولا نعتمد في حكمنا على صانع الجمال أو الأديب إلا بتفحصنا المادة الحسية التي ينتجها[22]،والتي يجب أن تكون خالة من أي خلل فني – قدر الإمكان – عبارات متراصة الألفاظ ،بدقة وحسن في الرصف والترتيب،وقائمة على الوحدة العضوية للأفكار متسلسلة متناسقة،يجمعها منطق في الصياغة وسلاسة في النظم،وإن المقدرة الإبداعية للأديب وهو يعانق اللغة ؛لإبداع في السبك والتنسيق[23]،وإحلال الألفاظ في مواضعها،وإضفاء الصور وظلالها وإيحاءاتها النابعة من أعماق الأديب،يتجلى كل هذا وأكثر عند قراءة نتاجه والوقوف على تفاصيله وهي تشع نورا مصدره بكل ثقة اللغة.

---

[21] الكتابة والإبداع،ص103-104.

[22] الألسنية العربية،ريمون طحان،ج2،ص116..

[23] الإعجاز الفني في القرآن،عمر السلامي،ص126.

إن تراصّ الألفاظ، والإحكام في صوغها،وإن ضخامة المعنى وغزارته وخصوبته،وتشبع الأجزاء بإيضاحات للهيكل العام للفكرة؛تسهم في إبراز الصورة للعبارة بمعانيها الجمالية ومواطن قوتها.

إن النصوص الإبداعية العربية لها خصوصيتها النابعة من اللغة التي كتبت بها،هذه الخصوصية ذات الآفاق النفسية،والروحية،والحضارية،والفكرية،والفنية،وهي التي جعلتها تتفوق على غيرها من نصوص اللغات الحية؛حيث التنوع في التناول والاعتناء بالنص،والاهتداء المضمرات النصية بالصورة الإبداعية التي يحملها ،سواء أكانت خطابية أم فنية نصية.[24]

تتنوع مميزات النصوص الإبداعية التي تتخذ من اللغة العربية نهجاً ونبراساً،بكثرة إيحاءات ومضمرات،وقدرات تخييلية،ودرجة محاورة للواقع،وخلق عوالمه الخطابية- الرواية خاصة-،والحديث عن عالم النص الروائي الإبداعي،وعناصره ومكوناته،يجرنا للحديث عن أهم هذه العناصر وهو اللغة الروائية،وامتداداتها ،إيحاءاتها، وشعريتها، وأداؤها على المستوى البلاغي والإبداعي.[25]

إن المنزع الأساس للخطاب الروائي ،أيديولوجي بالدرجة الأولى،أي توصيلي بمعنى غير سطحي للتوصيل،غير أنّ الأداء والمسلك الذي يسلكه النص في توصيل ذاته يتفاوت تفاوتاً متنوعاً،يعتمد على المرجعية الفنية والمطمح الأدبي لكل كاتب من الكتاب،وكذلك يعتمد بشكل خاص على خصوصية الكاتب النفسية وقدرته اللغوية والتخييلية التصورية التي يصوغ وفقها عالمه اللغوي،وقد سادت النثرية الصرف في أكثر النصوص الروائية[26] – هذا يؤكد فضل اللغة وفنونها في عالم النصوص الإبداعية – وإذا بحثنا عن في مفهوم مصطلح الرواية وجدناه في أبسط تعبير"فن نثري..."وهذه النثرية في منظور النقاد هي التي تميز النوع الأدبي(الرواية) عن غيره من الأنواع الأدبية الأخرى،مع إضافة ميزات أخرى،من دون التفصيل في معنى "فن" ومن أين اكتسب هذه الصفة؟،وأعتقد أن ذلك يعود للبراعة في الاستعانة باللغة من كل جوانبها،هذه البراعة التي تتاح لبعض الأدباء وتهمل عند آخرين؛فالأديب المتميز هو القادر على معرفة أسرار ودقائق اللغة والغوص في أعماقها،فهو بواسطتها يصوغ أفكاره ويعرض صوره ومتخيالاته في عبارات وجمل ابتكارية مستحدثة ،تجعله مبدعاً وتصنف نتاجه إبداعاً.

---

[24] الطريق إلى النص،سليمان حسين،ص5.

[25] المصدر نفسه،ص6.

[26] المصدر نفسه،ص64.

على الروائي أن يهتم اهتماماً شديداً بالمحسنات والبلاغيات التي تعمق العالم الروحي والفكري مهما تكن درجة مقاربته للواقع ، ومهما تكن منازعه التسجيلية ؛لأن واقعية العمل الأدبي والرواية بخاصة لا تعني فقدانها معنى الأدب والشعرية،أو اللغة الشعرية مكون رئيس من مكونات أدبية الأدب، وليس عجيباً عند ذلك أن تقوم المقاربات الدراسية للرواية بالاستعانة بالعناصر النقدية الشعرية ، وهذا الحدث يستدعي منا – استعياء – مفهوم اللغة الشعرية أو مفهوم الشعرية،ولكن الحديث التفصيلي عن نظرية الشعرية في النص الشعري ومكوناته،وعناصره،وأدواته ليس من اختصاص تناول أو مقاربة كمقاربتنا،وإنما نجد أنه من الضروري تحديد الفهم العام لمعنى الشعرية ،وأول حدّ نسقطه عن مفهوم – الشعرية الروائية – مفهوم الموسيقا الظاهرة التي نجدها في الشعر – الموسق – بموسيقا ظاهرة ، ونحتفظ بعد ذلك بكل العناصر الأخرى التي تحملها اللغة الشعرية من "تخييل،وموسيقا داخلية،وشحنات نفسية،ودلالات فكرية ومعرفية..." لنتناول مكونات النص وفق هذه العناصر[27].

إن الصلة ما بين الرواية واللغة صلة قوية ،لا تقوم على مستوى البنية الروائية وقدرة الخطاب الروائي على احتواء وتشرب مستويات اللغة بمختلف خطاباتها فحسب؛وإنما أيضا – وهذا هو الأهم – في تاريخ التشكيل وأسباب الظهور؛إذ أن ظهور النص الروائي الإبداعي في مجتمع من المجتمعات كان دائماً مرتبطاً بمستويات كثافة النثرية وهيمنة مكون من مكوناتها وقدرته على استيعاب الأنساق السردية؛كما أن تطور الخطاب الروائي وتجدده كان يأتي دوماً من جهود الكتاب والروائيين المتميزين؛الذين يتركون بصماتهم الفنية في تاريخ تشكل الرواية في مجتمع ما ،مثل ما هو الحال بالنسبة لنجيب محفوظ في الرواية العربية،حيث مثل هذا الروائي نموذجاً عربياً،ترك بصماته الفنية في تاريخ الرواية العربية؛انتقلت بها الكتابة الروائية العربية في كل مرة من مراحل تطورها إلى لحظة أخرى من تاريخ تشكل الخطاب الروائي العربي،وقد تعدد هذا الفعل والإنجاز الإبداعي لفترة ناهزت الثلاثين عاماً،إلى درجة أصبح معها ينظر إلى هذا الروائي المتميز وقتها،بأنه عقبة كأداء في وجه كل روائي عربي يريد أن يتميز ويضيف إلى الرواية العربية بصمة جديدة؛وهذا كله يعود لطريقة تعامله مع لغة الكتابة التي يستعين بها في عرض أفكاره،وإيضاح صورة ،وإطلاق العنان لمخيلته،التي لا تتوقف طالما يمتلك عنان اللغة ،ويفك أسرارها ودقائقها.

---

[27] الطريق إلى النص،ص 65 -66.

إن إنجاز الروائي نجيب محفوظ يتحدد بشيء من الإيجاز المميز في الرواية العربية؛وهو أنه كان أحد الكتاب والروائيين العرب الذين – طوعوا — اللغة العربية لأغراضه الإبداعية،وأسهموا في تدعيم سلطة النثرية العربية الحديثة في الكتابة السردية العربية الحديثة؛وعملوا على تشرب هذه النثرية ببلاغتها الحديثة للسرد وأشكاله؛خاصة منها الرواية؛حيث كانت تجربة الكتابة عند محفوظ فنية متميزة ونادرة على مراحل تطور هذا الفن الإبداعي؛فقد رافقت كتابة الرواية عند محفوظ مختلف لحظات التطور والتشكل الفني للنص الروائي العربي إلى درجة يمكن القول معها،إنما عرفه النص الروائي العربي في مصر من تطور فني منذ منتصف الثلاثينيات إلى منتصف الستينيات على يد نجيب محفوظ،كان العينة والنموذج النصي؛لانتقال الخطاب الروائي العربي من لحظة فنية إلى أخرى،من لحظة إنجاز ما سمى في تاريخ السرد العربي بالرواية التاريخية فالواقعية النقدية ،ثم الرواية الذهنية،وهي اللحظات التي رصدها مؤرخو السرد العربي والمشتغلون بالشعرية العربية ،وبالسرديات التاريخية منها خاصة،وأعتقد أن الذي طبع الكتابة الروائية عند محفوظ هو تعدد الأنساق اللسانية وثراءها ؛فقد اتسمت النثرية السردية عند محفوظ بتعدد الأنساق اللسانية وتنوعها؛نتيجة لامتلاكه لهذه الأنساق،وتمكنه من الأساليب العربية؛وتمكن ملاحظة هذا التعدد في الأنساق اللسانية وتنوع مصادرها في الكتابة الروائية عند محفوظ من خلال تطور المنجز السردي لديه؛فقد واكب اللفظ المعنى عنده ،ففي كل مرة من لحظات تطور النص السردي عنده؛كانت الألفاظ والأساليب تأتي نابعة من نثرية ذلك التوجه.[28]

إن التعددية اللغوية داخل نصوص محفوظ الروائية،والتي حافظ فيها على بلاغة اللسان العربي؛فكانت كل شخصية تتكلم من موقعها الاجتماعي أو المهني؛فيأتي المنطوق الروائي معبراً عن حرارة التجربة الاجتماعية في تجليها اللساني وإنجازها — التلفظي —ولكن بما هي عربية هذه المرة،أي أن ارتباط محفوظ بلغة ولسان المتكلم في الرواية لم يخرجه في أغلب الأحوال عن أسلوب اللسان العربي وشروط إبانة الفصحى،فجاءت رواياته متسمة بتعددية في مستويات اللغة،بتعدد المنطوق الاجتماعي للمجتمع المصري؛ولكن بما هو عربي،هذه التعددية في مستوى التعامل مع اللغة في النص الروائي الإبداعي،وهذه القدرة في التعامل مع مكونات اللغة خدمة للنص؛تؤكد شيئاً واحدا أن هذه الظاهرة اللسانية واللغوية لا

[28] انفراط العقد المقدس،محسن جاسم الموسوي،منشورات الهيأة المصرية للكتاب،القاهرة،1999م.

يملكها إلا من كانت له خبرة لغوية ومعرفة لسانية،وطريقة مميزة في الاستفادة من اللغة وتوظيفها لتخدم النصوص الإبداعية.

إن الحديث عن النصوص الإبداعية وفضل اللغة في تكوينها،يجرنا للحديث عن مسك الختام في بحثنا هذا،وهو القرآن الكريم كلام الله – سبحانه وتعالى –،فلا أحد ينكر أنه جزء من إرث الأمة اللغوي ؛ فقد جاء به – سبحانه – بلغة العرب لتزداد به همة ورفعة ،ويتشرف هو ببيانها وإعجازها،وإن إعجاز القرآن وبلاغته وهما أصل الإبداع في نصوصه وآياته يجعلنا نستعرض شيئاً عن المجاز القرآني ؛لتدليل على أثر اللغة العربية في بلاغة بعض الجمل القرآنية.

المجاز لغة من جزت الطريق جوازا ومجازا، والمجاز المصدر والموضع،فالكلمة تدل على القطع والسلوك سواء أكانت بمعنى المصدر من جزت الطريق مجازا،أم من اسم المكان الذي يسار فيه،فالمجاز –إذن – يتضمن معنى الانتقال، وقد اخذ البلاغيون بهذا المعنى ، واستعانوا به للدلالة في نقل الألفاظ من معنى إلى آخر،ولقد نقل ابن منظور قول اللغويين:جزت الطريق،وجاز الموضع جوازا ومجازا:سار فيه وسلكه،وجاوزت الموضع بمعنى جزته،والمجاز والمجازة الموضع[29]، قال عبدالقاهر الجرجاني الذي يرجع إليه الفضل في كشف العلاقة بين اللغة والاصطلاح في اشتقاق لفظ المجاز:و أما المجاز فقد عوَل الناس في حده على حديث النقل، وأن كل لفظ نقل عن موضعه فهو مجاز[30]،وعرفه بأنه مفعل من جاز الشيء يجوزه،إذا تعداه،وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة،وصف بأنه مجاز،على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي،أو جاز هو مكان الذي وضع به أولاً.[31]

والمجاز أو الاتساع سمة ملازمة لكلام العرب قبل الإسلام،وجاء القرآن الكريم على سننهم في التعبير بلسان عربي مبين، فاخذ المجاز منه شطر الحسن؛لما فيه من دقة التعبير،وإخراج المعنى بصفة حسية تكاد تعرضه أمام العيان،لهذا قيل فيه:إنه فصل مهم كبير من علم البيان،بل هو علم البيان بأجمعه،فإن في تصريف العبارات على الأسلوب المجازي فوائد كثيرة.[32]

---

[29] لسان العرب،ابن منظور،مادة(جوز).

[30] دلائل الإعجاز،عبدالقاهر الجرجاني،ص66.

[31] أسرار البلاغة،عبدالقاهر الجرجاني،ص325.

[32] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،جابر عصفور،ص356.

لقد عرف سيبويه المجاز،إذ كان يسير إلى السعة في الكلام،ويريد به التعبير غير الحقيقي[33]،وسماه الفراء الإجازة[34]،وشاعت كلمة(المجاز) عنوانا لكتاب أبي عبيدة(مجاز القرآن)،إلا أن مفهومه لم يكن قسيما للحقيقة،أو مقابلا لها،وإنما أراد به طرق التعبير ومسالكه المختلفة[35]،كما استعمله ابن قتيبة بمفهوم واسع،فهو يشمل عنده الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار وغير ذلك[36]،ثم أخذ بالتحديد من القرن الثالث الهجري قي بيئة المعتزلة[37]،وقد رفد البحث في الحقيقة والمجاز أمران،الأول:البحث في أصل التوحيد،وهو أحد أصول الدين،والثاني:البحث في نشأة اللغة[38].

والمجاز عند علماء الإعجاز ميدان واسع فسيح،سعوا من خلاله إلى الكشف عن وجوه البلاغة؛لأنه حقيقة واقعة في كلام العرب وفي القرآن الكلام،وهي تحفل بألوان مختلفة منه،وإذا كان العلماء القدامى لم يتحدثوا في تفصيل هذه الألوان تحت مصطلحات بلاغية محددة،فإنها كانت على الرغم من ذلك أسلوبا بليغا معروفا.

إن العودة إلى مجهودات اللغويين – خاصة القدامى- في مفهومهم للمجاز يفيد البحث العلمي في حقيقة المجاز،نذكر منهم على سبيل المثال أبو عبيدة في (مجاز القرآن) الذي عرف عنه عدم عنايته بالبحث في إعجاز القرآن،ولم يظهر تفرد أسلوب القرآن عن أساليب كلام العرب،وإنما كان همه- تطبيقي - في تخريج مجازات القرآن على مجازات العرب،ولم يستعمل أبوعبيدة مصطلح المجاز بمعناه الذي استقر عليه فيما بعد في كل موضع من كتابه،فكان إطلاقه للمصطلح يتفاوت بين دلالته على النقل في استعمال اللفظ بعلاقة ودلالته على غير ذلك.

---

[33] الكتاب،سيبويه،53/1.

[34] معاني القرآن،الفراء،270/3-271.

[35] مجاز القرآن،أبوعبيدة،ص19.

[36] تأويل مشكل القرآن،ابن قتيبة،ص15-16.

[37] الإيمان ،ابن تيمية،ص84.

[38] الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم،محمد الكواز،ص125.

فمن الأول قوله تعالى:﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾الأنعام/6،قال أبوعبيدة:مجاز السماء هاهنا مجاز المطر،يقال: مازلنا في سماء،أي في مطر،ومازلنا نطأ السماء:أي أثر المطر[39]،وهذا من المجاز المرسل بحسب مفهوم النقل في المجاز،ومن الثاني قوله تعالى:﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾المائدة/95،قال أبوعبيدة:فمن عاد فإن الله ينتقم منه[40]،والمجاز هنا يدل على التفسير والشرح.

الملاحظ أنه أكثر من إطلاق المصطلح في المعنى العام للمجاز،أي في كل ما هو معدل عن أصل، ومنه التقديم والتأخير،كما في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾الحج/5،قال:أراد ربت واهتزت.[41]

ومنه الإطناب –كما في رأيتم– من قوله تعالى:﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾يوسف/4،قال:أعاد الرؤية،وجعله من مجاز المكرر للتوكيد.[42]

ومنه التمثيل وهو نوع من التشبيه،كما في قوله تعالى:﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾التوبة/109،قال:ومجاز الآية مجاز تمثيل ؛لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق ، فهو على شفا جرف،وما هو يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه.[43]

والحذف كما في قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾الزمر/73،قال:هذا من مجاز ما كلف عن خبره استغناء عنه وفيه ضمير.[44]

لم يقتصر تخريج مجازات القرآن على أبي عبيدة،فقد اشترك معه لغويان،ألفا في معاني القرآن هما الفرّاء والأخفش، حيث خرجا المجاز القرآني تخريج أبي عبيدة،من ذلك قول أبي عبيدة:من مجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس قوله تعالى:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ

---

[39] مجاز القرآن،أبوعبيدة،186/1.

[40] المصدر نفسه،139/2.

[41] مجاز القرآن،12/1.

[42] المصدر نفسه،70/1.

[43] نفسه،269/1.

[44] نفسه،9/1.

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾فصلت/11،وهذا مجاز الموات والحيوان الذي يشبه فعله بفعل الآدميين.[45]

وقال الفرّاء:ولم يقل طائعتين ،ولا طائعات،ذهب به إلى السموات ومن فيهن،وقد يجوز:أن تقولا وأن كانتا اثنتين:أتينا طائعين،فيكون كالرجال لما تعلمتا[46]، وقريب منه تفسير الأخفش لقوله تعالى:﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾يوسف/4،قال:لما أطاعوا ساروا كمن يعقل.[47]

ومن إجماعهم أيضا على مجاز القرآن قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾آل عمران/173،إذ أن الناس – الأولى – تعني رجلا واحدا ،فهذا مجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع الذي له واحد منه،ووقع معنى هذا الجميع على الواحد.[48]

وقد يختلف الثلاثة في تفسير الآية بحسب المجاز عند كل واحد منهم ، ففي قوله تعالى:﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾البقرة/171.

قال أبوعبيدة: ومن مجاز ما وقع على المفعول وحول إلى الفاعل قوله:﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ...﴾ والمعنى على الشاء المنعوق به،وحول على الراعي الذي ينعق بالشاء، لأن الذي ينعق هو الراعي،ووقع المعنى على المنعوق به ،وهي الغنم...والعرب تريد الشيء ،فتحوله إلى شيء من سببه،يقول:اعرض الحوض على الناقة،وإنما تعرض على الحوض[49]،فهو يرى المجاز في القلب،أي إن المراد تمثيل حال الذين كفروا في دعائهم الأصنام،وهي لا تعقل ،بالغنم التي لا تفهم دعاء الناعق، فأضاف سبحانه وتعالى المثل الثاني إلى الناعق،وهو في المعنى مضاف على المنعوق به على مذهب العرب في القلب.[50]

---

[45] نفسه،1/10-196.

[46] معاني القرآن،الفراء،3/13.

[47] معاني القرآن،الأخفش،1/80.

[48] مجاز القرآن،1/9.

[49] المصدر نفسه،1/12-63.

[50] مجمع البيان،الطبرسي،2/255.

وذهب الفراء إلى أنه أضاف المثل إلى الراعي،والمعنى في المرعى،وهو مطابق لما ذهب إليه أبوعبيدة،إلا أن الفراء فسر المجاز بالحذف،فقال:تضيف المثل إلى ﴿الذين كفروا﴾وإضافته في المعنى إلى الواعظ،كقولك: مثل وعظ الذين كفروا وواعظهم كمثل الناعق،كما تقول: إذا لقيت فلانا فسلم عليه تسليم الأمير،وإنما تريد به: كما تسلم على الأمير.[51]

وتابعه الأخفش في الحذف فقال:إنما هو مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به،فحذف هذا الكلام،ودل ما بقي على معناه.[52]

ويلتقي ابن قتيبة مع كثير من العلماء ؛إلا أنه استثمر المجاز في وجهة تختلف عن وجهتهم،إذ جعله سلاحا للدفاع عن القرآن،وبيان فضله وسد الذرائع أمام المناوئين،وقطع أطماع الكائدين[53]،وربط الإعجاز بالمجاز من خلال أمرين ،الأول: أن المجاز مبدأ طبيعي في لغة العرب،فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجاز ما أوتيته العرب.[54]

الثاني:أن القرآن نزل بمجازات العرب نفسها ، حيث إن في مجازاتها – وهي طرق القول ومآخذه- الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع،والجميع خطاب الواحد،والواحد والجميع خطاب الاثنين... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن.[55]

ويلاحظ أن كلمة المجاز عنده تخلصت من معاني الشرح والتفسير،واقتصرت على العدول،أو الخروج عن التعبير الأصلي إلى التعبير الفني، حيث فضل التأنق لغرض خاص،يقصد إليه لإثارة العواطف وتنبيه الوجدان فضلا عن إظهار المعاني[56]،وقد وجدنا الباحثين المعاصرين يذهبون في دلالة المجاز عند ابن قتيبة مذاهب مختلفة فمنهم من حكم تقسيمات البلاغيين المتأخرين فقال:إن الاستعارة عنده تتسع لمعنى

---

[51] معاني القرآن ، الفراء،1/99-100.

[52] معاني القرآن ، الأخفش،1/48.

[53] تأويل مشكل القرآن،ابن قتيبة ،ص193.

[54] المصدر نفسه،ص20.

[55] نفسه،20-21.

[56] أثر القرآن في تطوير النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري،محمد زغلول سلام،ص122.

الكناية[57]،ومنهم من وجد أن ابن قتيبة يعد كل ألوان البلاغة قاطبة من المجاز[58]،ولكننا نلاحظ أن ابن قتيبة ادخل في المجاز كل ما كان معدولا عن أصل،وكل ما أريد غير ظاهره لغرض فني،حرص أسلوب القرآن عليه للتأثير في نفوس متلقيه، مثل ذلك الاستعارة،وهي أن تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى،أو مجاورا لها،أو مشاكلا،كما في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾القلم/42،قال ابن قتيبة:أي عن شدة من الأمر ، وأصل هذا أن الرجل ،إذا وقع في أمر عظيم، يحتاج إلى معاناته والجد فيه،شمر عن ساقه،فاستعيرت(الساق) في موضع الشدة.[59]

وهذه الآية شاهد على النوع الأول،أي ما كانت الكلمة فيه مكان الكلمة لسبب ، والمراد بتلك الاستعارة التعبير عن هول الأمر وشدته،وعظم الخبر وفظاعته؛لأن من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة...فيكون تشمير الذيول عند ذلك أمكن للقراع.[60]

هذه بعض أنواع المجاز،وهناك أنواع أخرى أعرضت عنها بغية الإيجاز،واكتفيت بما عرضت له ،ليتركز البحث في جانب واحد من ظاهرة أثر اللغة في النصوص الإبداعية،والأمر يدعونا لإيراد القرآن الكريم مثلاً لذلك ،والموضوع يطول وبه جوانب أخرى جديرة ببحوث مسقلة ،فانتهيت وتوقفت عند هذه النقطة فاتحاً الباب أمام آخرين،وتوصلت في ختام بحثي لهذه النتائج:

النتائج

- إن العلاقة بين اللغة والنصوص الإبداعية علاقة تكاملية.
- إن اللغة هي مخزن كبير من الابتكارات الإبداعية.
- الفن الأدبي الإبداعي يتكئ على ما في اللغة من فنون التعبير.
- إن النسيج المكون للغة ليس إلا مكوناً من مكونات الإبداع والذي ليس بمقدوره الاستغناء عن هذا النسيج.
- القرآن حث المسلمين إلى ضرورة استخدام البلاغة والفصاحة في الجدال مع الآخرين،وهذا يدل على أن إحكام النصوص الإبداعية تساعد كثيراً في طرح الأفكار وعرضها.

---

[57] المجاز في البلاغة العربية،مهدي السامرائي،ص74.

[58] أثر النحاة في البحث البلاغي،عبدالقادر حسين،ص181.

[59] تأويل مشكل القرآن ،ابن قتيبة،ص193.

[60] تلخيص البيان في مجازات القرآن،الشريف الرضي،ص341.

- العربية بكل خصائصها وميزاتها مميزة لتنتج أدباً رفيعاً ونصوصاً إبداعية نندهش بها حقيقة وحكماً.
- العربية انفردت عن سائر اللغات بكثير من الخصائص لم يكن بمنأى عنها،فكان حديثهم ونتاجهم الأدبي خلاصة تفاعلهم معها.
- اللغة تتطور وترتقي بتطور النصوص رقيها.

المصادر والمراجع

1-أثر القرآن في تطوير النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري،محمد زغلول سلام،دار المعارف،مصر،الطبعة الثانية،1961م.

2-أسرار البلاغة،عبد القاهر الجرجاني،تحقيق:هـ ريتر،دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر،الطبعة الثالثة،بيروت،1983م.

3-الأدب وخطاب النقد،عبدالسلام المسدي،دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،الطبعة الأولى،2004م.

4-الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم،محمد كريم الكواز،منشورات جمعية الدعوة الإسلامية،طرابلس،ليبيا،1997م.

5-الإعجاز الفني في القرآن،عمر السلامي،نشر وتوزيع مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله،تونس،1980م.

6-انفراط العقد المقدس،محسن جاسم الموسوي،منشورات الهيأة المصرية للكتاب،القاهرة،مصر،1999م.

7-الألسنية العربية،ريمون طحان،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1972م.

8-الإيمان،تقي الدين أحمد بن عبد الرحيم،ابن تيمية،نشر:محمد زهير الشاويش،المكتب الإسلامي،دمشق،1381هـ.

9-الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،جابر عصفور،دار الثقافة،القاهرة،1974م.

10-الطريق إلى النص،سليمان حسين،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،1997م.

11-العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب،شرح:الشيخ ناصيف اليازجي،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1981م.

12-بلاغة الكلمة والجملة والجمل،منير سلطان،منشأة المعارف بالإسكندية،مصر،1988م.

13-تأويل مشكل القرآن،أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة،تحقيق:أحمد صقر،مكتبة دار التراث،القاهرة،الطبعة الثانية،1973م.

14-تلخيص البيان في مجازات القرآن،أبو الحسن محمد بن الحسين،الشريف الرضي،تحقيق:محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،الطبعة الأولى،1955م.

15-دلائل الإعجاز ،عبدالقاهر الجرجاني،تحقيق:محمد رضوان الداية وفاروق الداية،دار قتيبة،دمشق،1983م.

16-ديوان أبي تمام،شرح الخطيب التبريزي،تحقيق:محمد عبده عزام،دار المعارف،1964م.

17-القارئ في النص،سوزان روبين سليمان وإنجي كروسمان،ترجمة:حسن ناظم وعلي حاكم صالح،دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،الطبعة الأولى،2007م.

18-الكتاب،أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه،تحقيق:عبد السلام محمد هارون،عالم الكتب،بيروت،د.ت.

19-الكتابة والإبداع،عبدالفتاح أحمد أبوزايدة،الدار الأندلسية للطباعة والنشر والتوزيع،طرابلس،ليبيا،الطبعة الأولى،1992م.

20-اللغة، مقدمة في دراسة الكلام،إدوارد سابير،ترجمة:منصف عاشور،الدار العربية للكتاب،تونس،1995 -1997م.

21-لسان العرب،جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،بيروت ،لبنان،الطبعة الأولى،1427هـ،2005م.

22-المجاز في البلاغة العربية،مهدي السامرائي،دار الدعوة،سوريا،1974م.

23-مجاز القرآن،معمر بن المثنى التميمي أبوعبيدة،تحقيق:محمد فؤاد سزكين،الطبعة الأولى،مكتبة الخانجي،مصر،1962م.

24-مجمع البيان، الفضل بن الحسن،الطبرسي،مطبعة كتابفروشي إسلامية،طهران،الطبعة الثالثة،د.ت.

25-معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة،الأخفش الأوسط،تحقيق:فائز فارس،الكويت،الطبعة الثانية،1981م.

26-معاني القرآن،أبو زكريا يحي بن زياد الفراء،تحقيق:أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار،دار الكتب،القاهرة،1955م.

27-المزهر في علوم اللغة وأنواعها،عبدالرحمن جلال الدين السيوطي،شرح وتعليق:محمد أحمد الجاد المولى ومحمد أبوالفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي،دار الجيل ،بيروت.

28-مناهج البلغاء وسراج الأدباء،أبوالحسن حازم القرطاجني،تقديم وتحقيق:محمد الحبيب ابن الخوجة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،الطبعة الثالثة،1986م.

29-نظرية الأدب،رينيه ويليك وأورين أوستن،ترجمة:محيي الدين صبحي،المؤسسة العربية،بيروت،الطبعة الثانية،1981م.

30-النقد الأدبي،أحمد كمال زكي،دار النهضة العربية،بيروت،1981م.